

نظرية علم النص في الدرس الحديث

من نحو الجملة إلى نحو النص ... إطلالة تاريخية :

شهد القرن العشرون تطوراً سريعاً لمجال علم اللغة الوصفي « فقد ركز اللغويون الأمريكيون عنايتهم على التحليل الشكلي عن طريق عمليات ومفاهيم وصفية بشكل موضوعي ، وهو ما كان بلومفيلد قد ألح على وجوبه ، وكانت الوجدتان الأساسيتان للوصف هما الفونيم الذي وسّع فيما بعد ليشمل كل الظواهر الصوتية المميزة ، والمرفيم وهو الوحدة الصغرى للتركيب القواعدي»^(١) .

ولكن نقطة التحول في مجال علم اللغة في هذا القرن اقترنت بكتاب تشومسكي (التركيب النحوية Syntactic Structures) عام ١٩٥٧ ، والذي يتناول فيه ما سماه بالقواعد التحويلية للغة ، وقد ظهر في كتابه رفضه للمنهج البنيوي «لأنه لا يتحرك إلا على السطح اللغوي والذي يصبح فيه الإنسان بمثابة آلة تحركها قوانين حتمية خاضعة لظروف محددة»^(٢) .

وقد أسهمت عدة عوامل في نجاح ثورة تشومسكي منها ، حالة علم اللغة الأمريكي في منتصف الخمسينيات وإدراك بعض العلماء أن هذا العلم في أزمة»^(٣) .

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ، ر. ه. روبنز ، ترجمة دكتور أحمد عوض - عالم المعرفة - الكويت - العدد ٢٢٧ ، نوفمبر ١٩٩٧ ، ص ٣٣٦ .

(٢) قضايا الحدائة عند عبد القاهر الجرجاني ، دكتور محمد عبد المطلب ، ص ٥٧ .

(٣) تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه ، دكتور صبري إبراهيم السيد محمد ، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩ ، ص ٣١ .

وقد واجهت بنائية بلومفيلد تحديات أخرى على يد فيرث Firth الذي وجه «اهتمامه بشكل أساسي على الفلجيا من ناحية ، وإلى الدلالة من ناحية أخرى، وبصرف النظر عن الملاحظات المعزولة لم يقل إلا القليل في النحو والصرف ، وهذه المستويات من التحليل اللغوي قد شرع هاليداي في تناولها بعد وفاة فيرث»^(١) .

ولم تخرج المحاولات السابقة بشكل عام عن إطار دراسة الجملة ، باعتبارها الوحدة الدلالية الكبرى في النص ، الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى دراسة أنماط معينة من الجمل لدى المبدعين ، ولكن بعد عزلها عن سياقها ، منطلقين من القواعد التي وضعتها كتب النحاة إلى النص الأدبي وليس العكس! وذلك على الرغم من أن الظاهرة الواحدة قد يختلف تأويلها باختلاف السياق الذي وردت فيه ، ومن أمثلة ذلك :

أنا يمكننا ترجمة جملة (كان أزرق اللون) إلى أية لغة دون الرجوع إلى السياق الذي وردت فيه ، والذي يعطيها بطبيعة الحال - معنى مختلفاً نحو :

« اشتريت دولاباً قديماً ، كان أزرق اللون :

- نظر البحار باستحسان إلى السماء ، كانت زرقاء اللون .

- أخذت عينة من دم السائق ، كان أزرق اللون .

لذا ينبغي لفهم الجملة الأولى « كان أزرق اللون » ووصفها تحليل الجملة السابقة على الأقل»^(٢) .

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ، ر.ه. روبنز ، ص ٣٤٨ .

(٢) علم اللغة والدراسات الأدبية ، برنثبلنر ، ترجمة دكتور محمود جاد الرب ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط أولى ١٩٨٧ ، ص ١٨٤ ، وانظر أيضاً :

١- تحليل دكتور محمد حماسة لظاهرة إشباع فتحة النون في الضمير (أنا) في الوصل التي وردت في شعر صلاح عبد الصبور بهذه الصورة ستاً وثلاثين مرة ، وفي كل مرة يختلف تأويلها باختلاف السياق الذي وردت فيه وذلك في كتابه : --

الأمر الذي أدى في بعض الأحيان بنحاة الجملة إلى القول بأن (النحو مستقل) ، ومن ثمَّ «نشأ المشكلة الأساسية المترتبة على الالتزام المترف بمنهج الجملة المصنوعة حين يصير معيار الجمل الناتجة قائماً على استبطان اللغوي لذاته ، فقد يؤدي (وحصل أن أدى في بعض المناسبات) إلى وضع يدعى فيه اللغوي أن (الأمثلة) التي يستعملها تمثل أنساقاً لغوية مقبولة لمجرد أنه يرى ذلك ، بسبب نظره الاستبطانية»^(١).

ومن هذا المنطلق أصبحت صور الجملة في النحو التحويلي من وجهة النظر العملية قالبية Modular إذ يجري توليد الجملة أول الأمر بوصفها نمطاً نحوياً ، ثم تجري لها بعد ذلك تفسير دلالي ، وأخيراً يأتي ولو في بعض الصور على الأقل شرح النواحي التداولية Pragmatic Interpretation»^(٢).

فقد عجز نحو الجملة عن تقديم نظرية أو منهج يستخدم في تحليل العمل الأدبي ، ومن ثمَّ دعت الحاجة إلى نشأة منهج ذي «وسائل بحثية مركبة ، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة»^(٣) ويكون النص فيه هو الوحدة الدلالية الكبرى ، فنشأ علم النص Text Grammar .

-- ٢- الإبداع الموازي ، ط دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ٤٠-٤٤ .

٣- ظواهر نحوية في الشعر الحر ، ط دار غريب ٢٠٠١ ، ص ١٠٧-١١٦ .

وقد نبه الدكتور البدرائي زهران إلى التفات الجرجاني إلى سياق الحال ومقام الاستعمال : انظر : عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني دكتور البدرائي زهران دار المعارف ط الرابعة ١٩٨٧ ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(١) تحليل الخطاب ، ح . ب براون ، ج . بول ، ترجمة وتعليق دكتور محمد لطفي الزليطي ، دكتور منير التريكي ، ط جامعة الملك سعود ١٩٩٧ ، ص ٢٦ .

(٢) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ترجمة : تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ١٢٧ .

(٣) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ، دكتور سعد مصلوح ، بحث ضمن الكتاب التذكاري المهدى إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكره الثانية ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ ، ص ٤٠٧ .

علم النص :

يرى معظم الباحثين أنه « لم يبدأ اتجاه نحو النص في أن يفرض وجوده إلا مع بدايات النصف الثاني من هذا القرن حين نشر زيلج هاريس Zellig Harris دراستين اكتسبتا أهمية منهجية في تاريخ اللسانيات الحديثة تحت عنوان : تحليل الخطاب « Discourse Analysis »^(١) .

ولكن هناك « دراسات سابقة على أعمال زيلج هاريس Z. Harris يمكن أن تعد بحق البدايات الفعلية في تحليل الخطاب ، وهذه الدراسات قدمت بعض الأفكار النصية الجوهرية ، ولكنها كانت متناثرة ومحدودة بشكل لا يسمح بتتابعها بدقة »^(٢) .

ومن هؤلاء (فايل) ١٨٨٧ ، الذي علق تتابع اللفظ على تتابع الأفكار ، وقد استفاد النقاد من أفكاره في دراسة النص الشعري^(*) .

وأيضاً الباحثة الأمريكية (I. Nye) التي أشارت في أطروحتها للدكتوراه ١٩١٢ ، إلى الربط والتكرار بناء على أسس نصية بوصفها من الأشكال المحددة للعلاقات^(٣) .

الأسباب الداعية لنشأة علم النص :

١ - فطنة المشتغلين بعلوم اللسان إلى أن اللغة ليست مجرد نماذج وأنماط للجمل ، وأن الفهم الحقيقي لها لا يمكن أن يتحقق باجتزاء الجمل من سياقها .

(١) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص دكتور سعد مصلوح ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٢) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، دكتور سعيد حسن البحيري ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان ط أولى ١٩٩٧ ، ص ١٨ .

(*) وقد سبقه لذلك بقرون عبد القاهر الجرجاني حينما ذكر أنك في الأصل تطلب المعنى، ومتى ظفرت به وجدت اللفظ أمام ناظرك ، انظر ص ١٩ من هذا البحث .

(٣) علم لغة النص ، دكتور سعيد البحيري ، ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٩٠ .

٢- الصيغة الانطباعية التي ظهرت في دراسة النصوص حينما انتقلت إلى علوم الاجتماع والأنثربولوجيا .

٣- العلاقة الوثقى التي تربط بين اللسانيات والدرس الأدبي ، فالقواعد النحوية التي صاغها القدماء كانت مستقاة في الأصل من النصوص الأدبية ، والعجيب أن هذه القواعد نفسها هي التي اتهمت من قبل بعض الباحثين بالجمود ، ولكن هذا الاتهام يرتد على قائله ، ذلك لأنهم انطلقوا من القواعد ليعمموها على كل النصوص ، وإن لم تنطبق على نص ما - وهذا ما حدث بالفعل - وجهوا إليه تهمة الجمود ، وتغافلوا عن أن لكل نص سياقه الخاص به.

ومن ثم دعت الحاجة لعودة الصلة الوطيدة بين الدرس اللغوي والدرس الأدبي كما كانت في الدرس القديم .

٤- إن دراسة النصوص هي دراسة للمادة الطبيعية التي تصل بنا إلى "هم أمثل لظاهرة اللغة ، لأن الناس لا تنطق حين تنطق ، ولا تكتب حين تكتب جملاً أو تتابعاً من الجمل ، ولكنها تعبر في الموقف الحي عما تريد من خلال حوار معقد متعدد الأطراف مع الآخرين .

٥- إن كثيراً مما وصف بالشذوذ في قواعد اللغة يمكن أن نجد له تفسيراً مقنعاً في نحو النص ، كما أن كثيراً من الظواهر التي تستعصى على الوصف في اللسانيات المعاصرة يمكن أن تعالج أو تصاغ بطريقة أفضل إذا وصفت من جهة العلاقات القائمة بين الجمل في نص يتصف بالتماسك

وانطلاقاً من الأسباب السالفة أصبح نحو النص عند كثير من اللسانيين المعاصرين ضرورة لا اختياراً^(١).

(١) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ، دكتور سعد مصلوح ، ص ٤١٠ .

بين الخطاب والنص :

قبل أن نلج في تعريفات النص ، أود في البداية أن أتعرض لمفهوم الخطاب ومفهوم النص ، فرى أن من علماء النص من يستخدم مصطلح النص كمرادف لمصطلح الخطاب ف « النص يظل على كل الأحوال متلاحماً مع الخطاب وليس النص إلا خطاباً »^(١) .

وهذا ما دفع إحدى الباحثات إلى أن تقول إن « ما سنقوله عن النص ينطبق على الخطاب »^(٢) وبعضهم يطلق مصطلح الخطاب على الكلام الشفهي ، أما النص فيطلق على العمل المكتوب .

ومنهم من يفرق بين النص والخطاب ، وبين عالم النص وعالم الخطاب مثل روبرت دي بوجراند الذي يرى أن « الصفة المميزة للنص هي استعماله في الاتصال ، وأن الخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة ، أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق ، وإذا كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاختزان في الذاكرة من خلال استعمال النص ».

فإن عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما »^(٣) .

(١) بحث بعنوان (نظرية النص) لبارت ، ضمن كتاب : آفاق التناسية المفهوم والمنظور ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ ، ص ٣٦ .

(٢) بناء النص ودلالته (محاوَر الإحالة الكلامية) ، مريم فرنسيس ، منشورات وزارة الثقافة بسوريا ١٩٩٨ ، ص ٤ .

(٣) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ص ٦ ، ويضرب دكتور تمام حسان (مترجم الكتاب) مثلاً توضيحياً لهذه العبارة بما كان يدور في مؤتمر السكان والتنمية الذي عقد بالقاهرة في سبتمبر ١٩٩٤ ، إن الكلمة التي ألقاها الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك في افتتاح المؤتمر نص لأنها قيلت على نية الاتصال ، أما عالم هذا النص فهو جملة المفاهيم التي نقلتها هذه الكلمة إلى المستمعين والأفكار التي --

وأرى أن هذا الخلط يرجع إلى محاولة علماء النص وضع نظرية تصلح لتحليل اللغة الأدبية واللغة غير الأدبية ، ولكنني في هذا البحث أستخدم مصطلح النص ، غير مميزة بينه وبين الخطاب لأنهما من وجهة نظري مترادفان ، ما دمنا نتحدث عن اللغة الأدبية .

تعريف النص :

يعد تعريف النص من أكثر المناطق خلافاً في نظرية علم اللغة النصي ، نظراً لاختلاف الأسس المعرفية التي ينطلق منها كل تعريف ، فمنها :

١- المعايير اللغوية :

بدأت الإرهاصات الأولى لتعريف النص منطلقة من النحو التحويلي ، وذلك في إطار « فرضية التوسع » ، فانتقلت الدراسة المقصورة على الجملة إلى تحليل أزواج من الجمل^(١) وبناء على هذا عرف برينكر Birnker وايزنبرج Isenberg النص بأنه « تابع مترابط من الجمل »^(٢) ويؤكد « توماس بالمر (١٩٧٥) أن النصوص ليست أكثر من تتابعات من الوحدات الصرفية جيدة السبك يمكن علاجها بتوسيع (نحو الجملة) بواسطة وحدات صرفية ترقية^(٣) .

-- كانت مختزنة في أذهانهم فنشطتها هذه الكلمة بعد هلوها ... فإذا رجعنا إلى النصوص التي التزم بها الرئيس الأسبق حسني مبارك بمطابقتها سواء في إطار الدين أو القانون بالإضافة إلى ما ورد في وسائل الإعلام من اتفاق واختلاف فإننا عندئذ في مواجهة ما يدل عليه مصطلح (الخطاب) أي مجموعة النصوص التي يربط بينها مجال معرفي واحد ، أما عالم هذا الخطاب فهو جملة الهموم المعرفية التي جرى التعبير عنها في هذا الإطار ، النص والخطاب والإجراء ، ص ٦ .

(١) مدخل إلى علم اللغة النصي ، فولفجانج هانيه ، ترجمة دكتور فالح بن شبيب العجمي ، ط جامعة الملك سعود ، ١٩٩٩ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) علم اللغة والدراسات الأدبية ، برند شبلنر ، ص ١٨٨ .

(٣) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ترجمة دكتور تمام حسان ، ص ١٠٢ ، وفي هذا الإطار يرى دي بوجراند أن هذه التعريفات : --

(يعرف هاليداي ورقية حسن النص بأنه «وحدة دلالية : وحدة ليست في الشكل بل في المعنى»^(١) وإن رأى أحد الباحثين^(٢) في التعريف السابق تعارضاً مع إشارتهما إلى أن ظهور «الروابط الأدائية بين الجمل أكثر وضوحاً ، لأنها المصدر الوحيد لخاصية النصية»^(٣) ولكنني أرى أن بين الإشارتين تكاملاً ، لأنها محاولة توفيقية منهما بين جانب النحو وجانب الدلالة ، فهما يبرزان دور الأدوات الموجودة بين الجمل في عملية الربط من خلال سياق معين ، هذا السياق هو الذي يعطي الأداة معناها ، ومن ثمّ تعدد المعاني الدلالية للأداة الواحدة .

وفي ضوء الإشارة السابقة يمكننا فهم تعريف هارفيج للنص بأنه :
«وحدات لغوية متتابعة مبنية بسلاسل إضمار متصلة»^(٣) .

فهو يعني بذلك أن الضمائر (وسيلة نحوية) تستخدم لغرض (دلالي) وتعد من أبرز وسائل تماسك النص ، ولهذا ذكرت جوليا كرستيفا أن «وصفاً وضعياً للطابع النحوي (التركيبى أو الدلالي) ، أو اللانحوي ليس كافياً لتحديد خصوصية النص كما نقرأه هنا . فدراسة النص تتطلب تحليل الفعل الدال ووضع المقولات النحوية نفسها موضع تساؤل»^(٤) .

-- ١- لا تكشف لنا عن نموذج مقبول للنشاط الإنساني .

٢- لا تصلح من الناحية العملية لأية مجموعة كبيرة من النصوص التي يعتد بها .

٣- لا تنظر نظرة واقعية إلى قضايا مثل : النصوص الشاذة ، والنص والخطاب والإجراء ، ص ١٠٢ .

(1) Cohesion In English M.A.K Halliday And Ruqaiya Hasan Longman, London, 1976, p.2

(*) الدكتور : محروس السيد يوسف بريك ، في أطروحته للماجستير «المعنى النحوي الدلالي وأثره في تفسير النص وبيان تماسكه» دراسة نصية في المعلقات السبع ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٤٤ .

(2) Ibid. P. 9

(٣) مدخل إلى علم اللغة النصي ، فولفجانج هانيه ، ترجمة : فالح بن شبيب العجمي ، ص ٢٧ .

(٤) علم النص ، جوليا كرستيفا ، ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط الثانية ١٩٩٧ ، ص ١٤ .

وقد عرفت جوليا كرسيفا النص من قبل بأنه «جهاز لساني يعيد توزيع نظام اللغة واضعاً الحديث التواصلي ، ونقص المعلومات المباشرة ، في علاقة مع ملفوظات مختلفة سابقة أو متزامنة»^(١) .

ويرى الدكتور صلاح فضل «أن الخاصية الأولى لتحديد النص هي «الاكتمال»، وليس الطول أو الحجم المعين ، ... وقد تستخدم في هذا المجال فكرة (انغلاقه على نفسه) كمحور لتحديد هذا الاكتمال لا بمعنى عدم قبوله للتأويلات المختلفة ، وإنما بمعنى اكتفائه بذاته ، فيصبح النص هو (القول المكثف بذاته والمكتمل في دلالاته) وما لا يحقق هذا الشرط - مهما كان طوله - لا يُعتبر نصاً»^(٢) .

وإن كنت أرى في مقولتي (الاكتمال) و(انغلاق النص على نفسه) شيئاً ليس بقليل من الإبهام ، فمن الذي سيحدد اكتمال النص المبدع أم المتلقي ؟ إضافة إلى أن تعبير (انغلاق النص على نفسه) يعني في النقد الحديث : غموض بعض النصوص الأدبية ، وصعوبة فك شفرتها وإيجاد مفتاحها إلا على يد مبدعها ، فكيف نعمم مصطلح غامض ونحن نقوم بتعريف مصطلح آخر جديد وهو (النص) ؟

وأختتم هذا المعيار بتعريف يعد من وجهة نظر الباحثين أكثر التعريفات فهما لطبيعة النص الأدبي واستثماراً حقيقياً للقديم والحديث معاً ، وهذا التعريف للدكتور «محمد حماسة عبد اللطيف» الذي يرى فيه النص «وحدة متلاحمة من صورته المنطوقة ، ونظامه النحوي الذي يحكمه ، وصورته

(١) نظرية النص لبارت ، مقال مترجم ضمن كتاب (آفاق التناسية) ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، ص ٣٧ .

(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص ، دكتور صلاح فضل ، مؤسسة مختار (دار عالم المعرفة) ، القاهرة ط أولى ١٩٩٤ ، ص ٢٣٢ .

المنطوقة هي (مفرداته) ، المصوغة في الجملة ونظامه النحوي هو الهيئة التركيبية التي توجد عليها هذه المفردات منظومة في الجملة»^(١) .

أي أن «النص لا يمكن أن » يتنصص إلا بفشل جديدة من البنية النحوية والمفردات»^(٢) فهذا التعريف ينم عن وعي كامل بدور المحور الأفقي والمحور الرأسي في النص الأدبي. ويدرك خصوصية التعامل مع اللغة الأدبية واختلافها عن اللغة الإعلامية أو المألوفة^(*) .

٢- اعتبار زاوية المتلقي :

« لا شك أن وجود القارئ المتلقي في العملية الإبداعية أمر بدهي ، حيث تكون القراءة عملية إيجابية وليست مجرد حضور سلبي ، أي لا بد من توازن حضوري بين الإبداع والقراءة ، ولا يكون هذا الحضور على أساس الرغبة فحسب ، بل لا بد من مراعاة الاحتياج ، فالرغبة والاحتياج يكونان في وعي المبدع بشكل لازم»^(٣) .

ومن هذا المنطلق يسقط اعتراض بعض الباحثين على تعريف «هاليلدي ورقية حسن» للنص ، فهم يرون أن هذا التعريف قد أغفل جانب المتلقي ، ومن ثم قاموا بإدراجه في تعريفهم للنص ومن هؤلاء الباحثين : «براون ويول» فهما يذكران أن المتلقي يتعامل مع اللغة المعروضة عليه بهذه الطريقة مع أنها تمثل

(١) النحو والدلالة ، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ، دكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الشروق ط أولى ٢٠٠٠ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) اللغة وبناء الشعر ، دكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ٩ .

(*) يتضح من تعريف الدكتور محمد حماسة القراءة الواعية للتراث وبخاصة نصوص سيويو المضيفة في كتابه ، والتي اهتمى بها الجرجاني إلى علم معاني النحو ووصل به لدائرة اللطف والمعنى الأول والمعنى الثاني .

(٣) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، دكتور محمد عبد المطلب ، ص ٢٢٥ .

« نصاً » ، لهذا لا نرى فائدة في تحديد عدد من الخصائص النحوية الأساسية التي لا بد أن تتوافر في النص حتى يكون النص « نصاً » فالنصوص هي ما يعده المستمعون نصوصاً»^(١).

وإن رأى بعض الباحثين في تعريف براون ويول إهمالاً للخصائص النحوية، ولكنني أرى أنهما لا يرفضان الجانب النحوي على إطلاقه^(*) ، ولكن يرفضان القواعد المسبقة التي تفرض على النص من الخارج ، والأصل أن تستنبط من النصوص ، وذلك لأن كل نص له خصائص نحوية تخلق له سياقاً خاصاً يختلف من مبدع لآخر ، والدليل على ذلك قولهما في موضع آخر « إن المعاني لا تكمن في الأدوات اللغوية المستعملة ، بل لدى المتكلم الذي يستعمل تلك الأدوات ويوظفها بشتى السبل لتحقيق مقاصده ونواياه»^(٢).

٣- اعتبار زاوية الاتصال :

وفي إطار تكوين النظرية حاول بعض علمائها توسيعها ، لتشمل مختلف أنواع النصوص ، الأدبية وغيرها ، فظهرت محاولات لدراسة التوظيف الاتصالي للنص .

ويظهر ذلك في أعمال كالماير Kallmeyer ١٩٨٠ ، حين عرف النص بأنه : « مجموع الإشارات الاتصالية التي ترد في تفاعل تواصلي»^(٣) .

وبناء على هذا التعريف ، فإن النص يشتمل على الإشارات الاتصالية اللغوية والإشارات الاتصالية غير اللغوية .

(١) تحليل الخطاب ، براون ، يول ، ص ١٠٠ .

(*) وقد قام براون ويول بتخصيص فصول ومباحث كاملة لدراسة الوسائل النحوية التي تسعى لتماسك النص ومنها : الإحالة ، انظر تحليل الخطاب ، ٢٢٧ .

(٢) تحليل الخطاب ، براون ، يول ، ص ٥٠ هـ .

(٣) مدخل إلى علم اللغة النصي ، فولفجانج هانيه ، ص ٨ ، ٩ .

وقد عرفه (روبرت دي بوجراند ود ريسلر) بأنه :

حدث تواصلية Communicative Occurrence .

وبعد عرض التعريفات المختلفة للنص وما اعتراها من خلط بين اللغة الأدبية واللغة غير الأدبية ، أحدد منطقة عملي وهي : لغة النصوص الأدبية ، ومن ثم أعرف النص بأنه : « حدث لغوي مفتوح(*) » ، ناتج من تضافر العلاقات الأفقية والعلاقات الرأسية للغة ، ويحتاج إلى الفهم والإصغاء .

وأعني فهم الحركة الجدلية بين توافق الكلمات وتخالفها ، والإصغاء هو ضرب من التفاني في فهم هذه العلاقات .

معايير النصية :

اتفق علماء النص على سبعة معايير لتحقيق النصية ، أو ما يكون به النص نصاً وهي :

١- السبك Cohesion (**):

ويختص بأشكال العلاقات المتبادلة بين مكونات النص السطحي معتمداً

(*) ومن خلال هذا التعريف أختلف مع الرأي القائل : إن « الجملة ذات معنى دلالي واحد لا عدة معان ، وينشأ ذلك المعنى من خلال علاقات الارتباط والربط الصحيحة نحوياً ودلالياً ، انظر : نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، دكتور مصطفى حميدة ، ص ٢٠٥ .

وأرى أن هذا الرأي مناهض لمرونة اللغة ، وسوف أطرح عليه سؤالاً إن كان ذلك كذلك ، فما فائدة تعدد القراءات القرآنية .

(**) ترجم الدكتور صبري إبراهيم السيد Cohesion إلى (تماسك ، تلاحم) ، وترجم Coherence

إلى الترابط المنطقي (انظر) معجم مصطلحات العلوم اللغوية دكتور صبري إبراهيم السيد محمد الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ، ط أولى ٢٠٠٠م ، ص ٢٢ .

وترجم الدكتور محمد العبد Cohesion إلى التماسك ، وترجم Coherence إلى

التألف ، انظر: اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة بحث في النظرية ، دار الفكر ، ط أولى

١٩٩٠ ، ص ٨٨ .

على العلاقات النحوية مثل : الإحالة (بالضمائر أو بأسماء الإشارة) والحذف والربط .

٢- الحبكة Coherence :

وهو خاص بكيفية تألف مكونات عالم النص فيما بينها والغرض من ذلك تنشيط عناصر المعرفة لإيجاد نوع من الترابط المفهومي ، ومن وسائله :

١- العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص .

٢- معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف .

٣- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية^(١) .

٣- القصد Intentionality (*) :

ويبحث في موقف مبدع النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصاً يقوم بتوصيل أهداف معينة في ذهن المبدع .

٤- القبول Acceptability :

ويختص بمتلقي النص ومدى قبوله له .

٥- رعاية الموقف Situationality :

ويقصد بها المناسبة بين فكرة النص والموقف المعبر عنه .

٦- الإعلامية Informativity :

« وتختص بمدى توقع الأحداث المعروضة في النص أو عدم توقعها ،

(١) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ترجمة : دكتور تمام حسان ، ص ١٠٣ .

(*) ينبغي أن نفرق بين مفهوم القصد في النظرية الظاهرية ، ومفهوم القصد في نظرية النص ، فالقصد في النظرية (الفلسفة) الظاهرية يعني « القراءة التي تقوم على دمج وعينا بالنص ، وهذه حقيقة تاريخية تقوم على أساس التفاعل بين (فعل وبنية) ... فهي تحدد فعل الوعي وبنيته على أساس مبدأ القصدية » . انظر قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، دكتور محمد عبد المطلب ، ص ٢٢٥ .

والإحاطة بهذه الأحداث أو الجهل بها ، ولا بد لأي نص أن يكون إخبارياً على نحو أو آخر ، مهما كانت صورة الإخبار أو المضمون المعبر عنه»^(١).

٧- التناص Intertextuality :

وذلك لأن « كل نص ليس إلا نسيجاً جديداً من استشهادات سابقة »^(٢) .
والمعايير السابقة^(*) يمكن تقسيمها إلى :

- ١ - ما يتصل بالمبدع والمتلقي : وهما معيارا القصد والقبول .
- ٢ - ما يتصل بالسياق المحيط بالنص : الإعلامية والمقصدية والتناص .
- ٣ - ما يتصل بالنص في ذاته وهما معيارا : السبك والحبك ، وسوف يقتصر البحث عليهما لأنهما أوثق صلة بالدرس اللغوي .

(١) اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ، دكتور محمد العبد ، ص ٨٨ .

(٢) مقال (نظرية النص) لبارت ، ضمن كتاب ، آفاق التناصية المفهوم والمنظور ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، ص ٤٠ .

(*) وردت هذه المعايير في كتب القلماء ، ولكن في صورة إشارات متفرقة فعلى سبيل المثال : عولج مصطلح (التناص) تحت باب السرقات الأدبية ، وورد في إشارة علماء التفسير إلى أن (القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً) ، وعولجت (الموقفية) تحت باب مقتضى الحال .

ولمزيد من التفاصيل انظر :

١ - موقف النقد العربي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية ، دكتور تمام حسان ، بحث ضمن كتاب (قراءة جديدة لتراثنا النقلي ط النادي الأدبي الثقافي بجدة ، المجلد الآخر ١٩٩٠) .

٢ - اللغة العربية والحداثة ، دكتور تمام حسان ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، ج أول ، العدد الثالث ، ١٩٨٤ .

السبك

اتفق علماء النص على أن النص « ليس تتابعاً عشوائياً لألفاظ وجمل وقضايا وأفعال كلامية ، فالنص كل تحده مجموعة من الحدود تسمح لنا أن ندركه بوصفه كلاً مترابطاً بفعل العلاقات النحوية التركيبية »^(١).

وهذه العلاقات النحوية هي منطقة عمل محور السبك Cohesion أي أنه يبحث في الإجراءات السطحية الناتجة عن إحكام علاقات أجزاء النص ، ويؤدي السابق منها إلى اللاحق ، ومن ثم فإن « فكرة التماسك ذات مفهوم دلالي ، تشير إلى العلاقات المعنوية الموجودة في النص والتي تحدده كنص ، ويتم التماسك حينما يعتمد تفسير بعض العناصر الموجودة في الخطاب على عناصر أخرى »^(٢).

أهمية السبك :

أوضح علماء النص أهمية محور السبك ، فقد عدوه :

- ١- أحد سبل الوصول إلى الكفاءة النصية Textual Efficiency « من خلال صياغة أكبر كمية من المعلومات بإنفاق أقل قدر من وسائل التعبير »^(٣).
- ٢- وأن « علاقات التماسك في النصوص إنما يستغلها الكتاب لتيسير القراءة والفهم على المتلقين »^(٤).

(١) مبادئ في اللسانيات ، خولة طالب الإبراهيمي ، ط دار القصة للنشر ، الجزائر ، ٢٠٠٠ ، ص ١٦٩ .

(2) Cohesion in English. P. 4 .

(٣) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ترجمة دكتور تمام حسان ، ص ٢٩ .

(٤) تحليل الخطاب ، براون ويول ، ص ٣٠ .

وسائل سبك النص :

يختص معيار السبك بمجموعة وسائل تسعى لتحقيق خاصية الاستمرارية في ظاهر النص Surfacetext ويجمع هذه الوسائل مصطلح عام هو الاعتماد النحوي Grammatical Dependency ويتحقق بالاعتماد في شبكة هرمية ومتداخلة من الأنواع هي :

- ١- الاعتماد في الجملة Intra-Sentential .
- ٢- الاعتماد فيما بين الجمل Inter-Sentential .
- ٣- الاعتماد في الفقرة أو المقطوعة .
- ٤- الاعتماد فيما بين الفقرات أو المقطوعات .
- ٥- الاعتماد في جملة النص^(١) .

ومن هذه الوسائل :

١- إعادة اللفظ Recurrence :

وهي التكرار الفعلي للعبارات ، ويمكن للعناصر المعادة أن تكون هي نفسها أو مختلفة الإحالة أو متراكبة الإحالة ويختلف مدى المحتوى المفهومي الذي يمكن أن تشطه هذه الإحالات بحسب هذا التنوع .

٢- التعريف Definitness :

وهو المدى الذي يفترض عنده إمكان التعرف على طبيعة عالم النص بالنسبة لتعبير ما في نقطة بعينها ثم استعادة هذه الطبيعة في مقابل حالة ذكرها لأول مرة عند هذه النقطة^(٢) .

(١) نحو أجرومية لدراسة النص الشعري ، دكتور سعد مصلوح ، مجلة فصول (المجلد

العاشر)، ١٩٩١ ، ص ١٥٤ .

(٢) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ص ٣٠١ .

٣- اتحاد المرجع Co-Reference :

ويقصد به استخدام عبارات مختلفة الدلالة ولكنها تعود على مرجع واحد داخل النص .

٤- الإضممار بعد الذكر Anaphora :

ويندرج تحت الإحالة المشتركة ويأتي فيه الضمير بعد مرجعه في النص .

٥- الإضممار قبل الذكر Cataphora :

ويندرج أيضاً تحت الإحالة المشتركة ويأتي فيه الضمير قبل مرجعه في النص .

٦- الإضممار لمرجع متصيد Exophora :

وهو الإتيان بضمير ليشير إلى أمر غير مذكور في النص ، ولكن يمكن التعرف عليه من خلال السياق ليربط بذلك بين عالم النص الداخلي والخارجي .

٧- الحذف Ellipsis :

ويقوم على استبعاد العبارات أو الكلمات التي يمكن أن تفهم من سياق النص .

٨- الربط Gunction :

« وهو يتضمن وسائل متعددة لربط المتواليات السطحية ببعضها بطريقة تسمح بالإشارة إلى العلاقات بين مجموعات من معرفة العالم المفهومي للنص »^(١) .

وتختلف الوسائل السابقة من حيث تعريفها لدى بعض علماء النص ، وأرى أن (اتحاد المرجع ، والإضممار بعد الذكر ، والإضممار قبل الذكر ، والإضممار لمرجع متصيد) يندرج تحت مصطلح (الإحالة) .

(١) النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ص ٣٠١ .

والوسائل السابقة لسبك النص لا تعد قوانيناً ملزمة ، وذلك لأن منهج نحو النص « لا يقدم القوانين على الاستعمالات بل يسعى إلى استخلاص واستقاء النتائج التي تجيزها الاستخدامات الفعلية دون غيرها ، ويعتمد على أغلب المصطلحات والمفاهيم المستخدمة في نحو الجملة ، إذ يركز نحو النص عليها أيضاً ارتكازاً شديداً إلى الحد الذي يستحيل معه الفصل بينهما ، غير أن تجاوز نحو النص حدود الجملة في التحليل يسمح بطرح إمكانات متعددة للفهم وفضاءات أرحب للتفسير»^(١) .

(١) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، دكتور سعيد البحيري ، ص ٧٧.

الحبك

إذا كان محور السبك يختص بالترابط الرصفي الظاهر على سطح النص ، فإن محور الحبك Coherence يعني بالترابط المفهومي .

ويرجع مصطلح Coherence إلى « الأصل اللاتيني Cahaerentia وهو مستعار من علم الكيمياء ويحده سوفنسكي بقوله « يقضي للجمل والمنطوقات بأنها مجبوكة ، إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض ، في إطار نصي أو موقف اتصالي اتصالاً لا يشعر معه المستمعون أو القراء بشغرات أو انقطاعات في المعلومات »^(١).

ويؤكد براون ويول أنه عن طريق هذه العلاقات المعنوية المندرجة تحت محور الحبك يمكننا « أن نعتبر أي مقطع منطوق أو مكتوب نصاً »^(٢).

ومن وسائل حبك النص :

- الوصل بدون أداة .
- الإحالة الضمنية .
- ترتيب وقائع وأحداث النص التي تعتمد على عدة أحوال منها :
- العام - الخاص .
- الكل - الجزء .
- المجموعة - العنصر .

(١) حبك النص ، منظورات من التراث العربي ، دكتور محمد العبد ، مجلة فصول عدد ٥٩ ، ربيع ٢٠٠٢ ، ص ٥٥ .

(٢) تحليل الخطاب ، براون ويول ، ص ٢٣٣ .

- المتضمن - المتضمن .

- الخارج - الداخل^(١) .

- الحاجة .

- المفارقة^(*) .

وسأفصل القول في هذه الوسائل في موضعها من البحث .

* * *

(١) النص والسياق ، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان دايك ، ترجمة :

عبد القادر قنيني ، ط أفريقيا الشرق ، المغرب ، ١٩٩٩ ، ص ١٥٤ .

(*) اقترح علماء النص هذه الوسائل لترتيب وقائع الأحداث في النص وضربوا أمثلة

لا تتعدى سطراً أو سطرين ، بينما وضع حازم القرطاجني منهجاً متكاملأ في ترتيب

أحداث القصيدة وفصولها وذلك قبل علماء النص يقرون ، انظر ص (٢٧-٣٦) من

هذا الكتاب .